مجلة الرواق للدراسات الاجتماعية والإنسانية | EISSN 2602-6767 ISSN: 2437 - 0363 | المجلد 10 / العـدد: 01 (2024)، ص 9-26

الطب في المغرب الأوسط الو اقع والمؤسسات

The Medicine in central Maghreb reality and structures

[1] بوعبد الله كرديم *، عمرسي عبد القادر[2]

[1] جامعة أبو بكر بلقايد،تلمسان (الجز ائر)

[2] جامعة أبو بكر بلقايد،تلمسان (الجز ائر)

تاريخ الاستلام: 2023/07/05 تاريخ القبول: 2024/05/08 تاريخ النشر: 2024/06/01

ملخص: تُعد صناعة الطب من العلوم العقلية التي عرفها مجتمع المغرب الأوسط إلى جانب العلوم النقلية من فقه وتفسير وحديث، وتعود أهمية الطب لكونه دافع للمرض حافظ للصحة التي حرص الإسلام على الاعتناء بها.

لم يكن الطب في البداية يُمارس بطريقة علمية لقرب السكان بالبداوة، والموجود منه كان يتم بطريقة تقليدية يعتمد على معلومات بسيطة متوارثة مع بعض التجارب الشخصية، وتأخَّرت ممارسته كصنعة إلى مطلع القرن الخامس الهجري مع الدولة الحمادية التي مثَّلت تطوُّرا سياسيا صاحبه ازدهار فكري وعمراني واجتماعي، وبذلك انتقل الطب إلى المرحلة العلمية التي تعتمد على البحث والدراسة، مستفيدا من التجارب السابقة للأغالبة والعبيديين، وكذا دخول كتب الطب المشرقية والأندلسية، فشجع ملوك بني حماد هذا العلم في حاضرَتَيهم القلعة وبجاية التي برز بها العديد من الأطباء من أهل البلاد أو المهاجرين إليها من الأندلس وغيرها. استمرَّ ازدهار الطب في المغرب الأوسط على عهد المرابطين، ثم الموحدين ولا سيما في بلاط السلاطين، إلى أن بلغ أوجه في عهد بني عبد الواد، حيث لم يقتصر على القصور، بل توسَّع ليشمل العامة، وبرزت قسنطينة وبجاية وتلمسان كحواضر للطب بما توفَّر بها من حوانيت وصيدليات، وبيمارستانات التي ساهمت في تطوير الطب من خلال ممارسة عمليا في الحياة الاجتماعية كالتطبيب، وتطبيق شروط النظافة، والوقاية، والغذاء الصحي.

إنَّ الهدف من هذا البحث هو إبراز واقع الطب في المغرب الأوسط، والمستوى الذي بلغه، ودوره في حفظ الصحة العامة، وأشهر من برز فيه من الأطباء. والإشكالية التي يُمكن أن نطرحها كمحور للموضوع، هي: ما طبيعة أو نوع الطب الممارس في المغرب الأوسط، وما عوامل نهضته، وما مدى مساهمة أطباء المغرب الأوسط في صناعته، وأثر ذلك على الوضع الصحي ؟ ولمعالجة هذا الموضوع وضعنا الفرضيات التالية: - التطور السياسي والحضاري للمغرب الأوسط. - دور الحواضر- دور الملوك والسلاطين - البيئة الطبيعية - هجرة بعض الأطباء إلى المغرب الأوسط.

للموضوع، هي: ما طبيعة أو نوع الطب الممارس في المغرب الأوسط، وما عوامل نهضته، وما مدى مساهمة أطباء المغرب الأوسط في صناعته، وأثر ذلك على الوضع الصحي ؟ ولمعالجة هذا الموضوع وضعنا الفرضيات التالية: - التطور السياسي والحضاري للمغرب الأوسط. - دور الحواضر- دور الملوك والسلاطين - البيئة الطبيعية - هجرة بعض الأطباء إلى المغرب الأوسط.

كلمات مفتاحية: المغرب الأوسط؛ الطب؛ الصيدلة؛ حفظ الصحة؛ المرضى؛ البيمارستان؛ ابن النباش؛ بجاية؛ الدولة الحمادية؛ الأخطاء الطبية.

Abstract:

The medicine is one of the mental science known to the middle Maghreb society, in addition to the literairy and religious sciences, the medicine had care for ist importance in mainatining health and preventing disease, which Islam is keen to protect, because it enables man to perform his duties. At first, medicine was done in a traditional way, with simple inherited knoledge with some personal experiences, , then it became scientific character that depends on research, study and accuracy, benefited from the Kirawan medical school, and from entering medical books, and the migration of some andalusian doctors. Medicine developed with the establishment of the hammadid state in the fifth century AH/11 JC, encouraged by the Hammadid kings, when some doctors emerged in the city of Bejaia which was a scientific metropolis, although medicine was confined to the Almoravid and Almohade eras for political reasons, it flourished during the Zianid era in the 8-9 century rs who visited Tlemcen, such ALQALSADI and ABD ELBASIT IBN KHALIL. The jurists set precise and strict conditions for medical practitionersAH, in practice and teaching, so Tlemcen emerged as a leading school in medicine, its doctors became professors of medicine, This was mentioned by travele and pharmacists to protect the public health, and punish those who infringe upon them.

Keywords: Middle Maghreb; Medicine; Pharmacology; Keep health; The patients; The hospital; IBN ENEBBECHE; BEJAIA; HAMMADID State; Medical mistakes.

*المؤلف المرسل

1. مقدمة: اقتصرت الحياة الفكرية في المغرب الأوسط بعد الفتح الإسلامي على العلوم الدينية من فقه وتفسير وقراءة وحديث، ومع التطوُّر السياسي والحضاري الذي عرفته المنطقة اتَّسعت الحركة العلمية لتشمل العلوم العقلية من طبيعيات وهندسة ورياضيات، وكان الطب أحد العلوم التي حظيت بالاهتمام لحاجة الناس إليه في حفظ صحتهم ودفع المرض عنها لا سيما وأنَّ المغرب الأوسط بدأ يعرف حركة عمرانية منذ القرن الثاني الهجري مع الدولة الرستمية، وكما هو معلوم فإنَّ العلوم عادة ما تزدهر في المدن باعتبارها من متطلبات الحضارة، ومن أحوال العمران الزائدة على الضروري، ومن جهة أخرى فإنَّ وقوع الأمراض أكثر ما يكون في المدن والأمصار كما يقول ابن خلدون، ولذلك اتَّجه الناس إلى تعلُّمه وممارسته في الحواضر، أمَّا في البوادي فبقي على حالته التقليدية تقريبا. ورغم تأخُّر ظهوره زمنيا في المغرب الأوسط بالمقارنة مع باقي أقسام بلاد المغرب، إلا أنه بلغ مكانة سامقة لاحقا، جعلت من بعض الحواضر مدارس للطب، وأطباءها أساتذة يُدرَّس على أيديهم.

1- مفهوم الطب: الطب علم نظري وعملي من فروع الطبيعيات (ابن سينا،1999، 200)، غايته حفظ الصحة ودفع العلل والأمراض عن الجسم، والصناعة الطبية حافظة للصحة الموجودة، ورادة للصحة المفقودة، والتطبيب علاج الجسم والنفس (ابن أبي أصيبعة، ص7)، والطبيب هو العارف بالطب المعالج للمرضى، والمتطبب الذي يمارس الطب ولا يعرفه معرفة جيدة، ولمَّا كان قيام النفس البشرية التي خلقها الله سبحانه وتعالى من الكليات الخمس (الشاطبي إبراهيم،1997، ص19ـ 20) التي أمر الشارع الحكيم بالمحافظة عليها مرتبط بالصحة، فإنَّ الاعتناء بها واجب لأنَّ العادات والمعاملات راجعة إليها، ومتوقفة عليها.

2- و اقع الطب في المغرب الأوسط: تأخَّر ظهور الطب زمنيا بسبب الظروف السياسية التي عرفتها المنطقة، فالدول التي تأسست في المغرب الأوسط كالدولة الرستمية، أو التي حكمته كالعبيديين اهتمت أكثر بالعلوم النقلية المذهبية وببعض الجوانب الاقتصادية لتثنيت وجودها السياسي، إضافة لطابع البداوة السائد، باستثناء المدن التي كانت حواضر تلك الدول، ولذلك لم تزدهر صناعة الطب في المغرب الأوسط إلا مع مطلع القرن الخامس الهجري تقريبا، وبلغ أوجه في العهدين الموحدي والزياني حيث انتشر صناعة وممارسة، وكثُر

الأطباء، وظهرت الصيدليات والبيمارستانات وحوانيت التطبيب في حواضر قسنطينة، والقلعة، وبجاية، وتلمسان.

سنحاول في هذا البحث تتبع تاريخية الطب وأنواع ممارسته ومؤسساته، وتطوره من القرن الخامس الهجري وحتى أواخر القرن التاسع الهجري.

3- الممارسة الطبية في المغرب الأوسط: يُمكن تقسيم الطب من حيث طرق وأساليب ممارسته، أو المرض المستهدف علاجه إلى عدة أنواع:

1-3 الطب العلمي: يقوم على أساس التفسير العلمي لحدوث الأمراض بسبب التغيرات الداخلية للجسم أو نوعية الأغذية، والبيئة والتغيرات المناخية (صديقي، 2021، ص77)، ويعتمد على التجارب والقوانين التي أقرها أهل الصنعة من الأطباء حيث يستدلون على المرض بالعلامات والتشخيص، وعلاجه بأمزجة الأدوية وقواها، وقبول المريض للدواء (ابن سهل ، 1928، ص 127). فمن خلال تفحُّص الطبيب للمريض والاستماع لشكواه وملاحظة الأعراض البادية عليه يُحدِّد المرض، ويلجأ أحيانا للتشخيص المقارن حيث يستطيع الطبيب معرفة المرض بمجرد رؤية المريض بناءً على أمثلة وتجارب سابقة (محمود الحاج، 2000، 132 ـ 140)، عندها يعالجه إمَّا بالأدوية، أو بالحمية كأن ينصحه بتناول غذاء معيَن، والابتعاد عن تناول آخر، فالمريض بالصفراء مثلا عليه أن يتجنب الأغذية الحارة كاللحم والعسل والفلفل، ويتغذَى على الألبان والحبوب، والفواكه الباردة كالقثاء والخيار، والحامض كالليمون (شخوم، 2019، ص78 ـ 100)، أو بالأفاويه وهي العطور ذات الرائحة الطبية (الرازي، 2000، ص50).

2-3 الطب الشعبي: لا يخضع لقوانين علمية، وإنَّما يعتمد على التجارب الشخصية، وبعض المعارف البسيطة، قال ابن خلدون:" وللبادية من أهل العمران طب يبنونه في غالب الأمر على تجربة قاصرة على بعض الأشخاص، ويتداولونه متوارثا عن مشايخ الحي وعجائزه، وربما يصح منه البعض، إلاَّ أنه ليس على قانون طبيعي "(ابن خلدون ، 2006، ص50) وقد انتشر هذا الطب في البوادي والمدن، ويمارسه العشابون الذين لهم معرفة بمفعول الأعشاب (مزدور، 2009، ص 182).

3-3 الطب الروحاني: وهو علم بكمالات القلوب وأمراضها ومداواتها، وكيفية حفظ الصحة والاعتدال الجسماني والروحي للقلوب، ورد الأمراض التي يمكن أن تصيب القلب. والطبيب في

اصطلاحهم عبارة عن الشيخ العارف بالطب الروحاني والقادر على إرشاد وتكميل الناس (التهاوني، 1996، ص1124). ارتبط إذن هذا النوع من الطب بالمتصوّفة والأولياء، حيث كثيرا ما كان العامة من الناس يلجئون إلى هذه الفئة طلبا للشفاء من الأمراض بالتبرك بهم وبكراماتهم (شخوم، 2013، ص 517 ـ 524) لا سيما وأنهم كانوا يعتقدون فيهم الاستجابة لدعواتهم والاستشفاء على أيديهم فيطلبون الوسيلة منهم أو عندهم، وكان علاجهم للمرضى بالتفل واللمس، أو الرقيا (ابن مريم ، 2014، ص180 ـ 270)، وكان المرضى أحيانا يتبركون بإحدى أدوات الشيخ كعصاه ونحوها، ومن ذلك الاستشفاء والتبرك بحجر أزرق كان يجلس عليه أبا عبد الله محمد بن أحمد بن النجار بإزَّاء داره (ابن مرزوق، 2008، ص176) ويظهر هذا كثيرا في تراجم الأولياء.

ومن مظاهر الطب الروحي أيضا التعاويذ، وهي عبارة عن طلاسم مخلوطة بأسماء مبهمة ورسوم، توضع في تمائم وتُعلق على الصدر (جيجلي، شخوم، 2020، ص 9 ـ31). وعلم الطلسمات علم باحث عن كيفية تركيب القوى السماوية الفعالة مع القوى الأرضية المنفعلة في الأزمنة المناسبة للفعل والتأثير المقصود مع بخورات مقوية وجالبة لروحانية الطلسم لتظهر من تلك الأمور في عالم الكون، وقيل هو مقلوب مُسلَّط، من جهة الغلبة والتسليط، تتبع طباع الأدوية والعقاقير، وحركات النجوم (خليفة، ص 1114)، وقد انتشر هذا النوع من الطب بانتشار كتبه مثل قبس الأنوار وجامع الأسرار للندرومي، وكتاب شموس الأنوار وكنوز الأسرار (شخوم، الصناعة الصيدلية بالدولة الزيانية من خلال مؤلفات إبراهيم بن أحمد الثغري التلمساني 8هـ/ 14م، 2013، ص 517ـ524) وهو ما تعكسه ظاهرة تعليق التمائم التي ذاعت كثيرا (البكري، 2013، ص 141).

اختُلِف في حكم الطلسم بين الفلاسفة أو الأطباء، والفقهاء، فهي عند جابر بن حيان علم من العلوم المعترف بها، لأنه بالطلسم يُخرج العالم ما يريد إخراجه من أشياء كانت كوامن، فظهورها مرهون بفعل الطلسم مماثلة أو مقابلة (نجيب محمود، ص260) بينما طالب العقباني بمراقبة ومنع من يتعاطى عمل الحروز (العقباني، 1967،ص86)، وأورد الونشريسي في المعيار بعض الفتاوى المتعلقة بهذا الموضوع، منها سؤال عمن يكتب حروفا مجهولة المعنى للأمراض، فأُجيب أنه إذا جُهل معناها الظاهر فلا يجوز أن يُستشفى بها (الونشريسي، 1981، ص171).

3- 4 الطب الوقائي: يُعد كوسيلة مبدئية ينصح بها الأطباء لتجنب الإصابة بالمرض وذلك بإتباع نظام غذائي يتلاءم مع فصول السنة وسن الفرد (مزدور، 2009، ص 170)، ولم يكن هذا الدور منوطا بالأطباء فقط، بل ساهم فيه الفقهاء وأصحاب الحسبة، على مستوى المجتمع بالسهر على نظافة أحياء المدن، ومراقبة صلاحية السلع المعروضة في الأسواق، وجودة الطهي في المطاعم، وعلى مستوى الأسرة، فكانوا ينصحون الأولياء مثلا بعدم ترك أبنائهم يلعبون خارج المنزل بعد العصر إلى المغرب لوقايتهم من الإصابة بالجن.

3-5 الطب الطبيعي: ويُعتبر كطب وقائي، أو كطب علاجي مكمِّل ولا سيما بالنسبة للمرضى في حالة النقاهة، ويكون ذلك بالرياضة، وقد لاحظ ابن خلدون أهميتها لدى أهل البادية، فهم أقل عرضة للإصابة بالأمراض من أهل المدن لكثرة حركتهم ونشاطهم، فقال:" الرياضة موجودة فيهم من كثرة الحركة في ركض الخيل أو الصيد أو طلب الحاجات (ابن خلدون ، 2006، ص328)، وبارتياد الأماكن ذات الأهوية لأنها منشِّطة للأرواح ومهذِبة للنفس، ولذلك كان شيوخ الزوايا والمدارس يخصِّصون لطلبتهم وقتا للمشي والتفسُّح لتنمية عقولهم وأجسادهم، فقد كان أبو عبد الله محمد بن بكر وهو من شيوخ الإباضية يخرج بالطلبة في زمن الربيع إلى بَوَادي مصعب - ميزاب – لإراحة خواطر هم وتدبير قوى أجسادهم واستصحاحها (الدرجيني، ص 184 ـ 185).

ومن الطب الطبيعي أيضا الاستحمام بالمياه الحارة أو الباردة، فالحمامات الساخنة تريح أعضاء الجسم المنهوكة وتُشفي من بعض الأمراض كالسل (برنار، 1829، ص68)، أمَّا العيون الباردة فتُعالج بها الحمى، فقد ذكر البكري أنَّ بمدينة ميلة عينًا تُعرف بعين الحمَّى، يُرَشُّ منها على المحموم فيبرأ لبركتها وشدة بردها (البكري، 2013، ص 149)

4-1 الطب في العهد الحمادي: تُعدُّ الدولة الحمادية أول دولة بربرية خالصة تتأسس بالمغرب الأوسط، والتي نقلت مجتمعه من القبلية والبداوة إلى الحضارة، فالعمران والصنائع غاية الحضارة، بل إنَّ الصنائع لا تتطوَّر أو تتنوَّع إلا في ظل استبحار العمران (ابن خلدون ، 2006، ص315 . 319) وهو ما عرفته الدولة الحمادية سواء في المرحلة الأولى عندما كانت القلعة هي الحاضرة، أو بعد الانتقال إلى بجاية، كما أنَّ الأمراض عادة ما تقع في أهل الحضر والأمصار لخصب عيشهم وكثرة مآكلهم وعدم توقيتهم لتناولها (ابن خلدون ، 2006، ص328)ونتيجة لذلك كان الطب من العلوم التي اعتنى بها الحماديون، ومما ساعد على ذلك

استقرار كثير من أطباء المشرق والأندلس ببجاية، ووفرة الأعشاب لتحضير الأدوية والعقاقير، وقد ذكر الجغرافيون كالإدريسي وغيره الكثير منها مثل الفوليون الحراني بالقلعة الذي استعمل ضد سموم العقارب (الادريسي، 2010، ص255) وشجر الحضحض، والقولوفندوريون، ومعناه مذيب الطحال، قيل أنه نبات صخري ينبت في المكان الكثير الفيء، وقيل ثوم بري (الهروي، 1830، ص19) والبرباريس، والقنطوريون، وكلها موجود بجبل مسيون (الادريسي، 2010، ص259). أما أشهر أطباء العهد الحمادي فنذكر:

- علي بن الطبيب: طبيب وشاعر (بورويبة، 1977، ص184 ـ 199).

- ابن أبي المليح الطبيب: كان طبيبا ماهرا مشهورا (عويس، 1991، ص270).

- ابن النباش أبو عبد الله محمد البجائي: كان معتن بصناعة الطب، مواظبا لعلاج المرضى، ملما بالعلوم الطبيعية (ابن صاعد، ص99 ـ 107).

- ابن البذوخ أبو جعفر علي بن عمر القلعي (ت575ه) (الصفدي، 1911، ص220): كان خبيرا بمعرفة الأدوية المفردة والمركَّبة، وله حسن اطِّلاع على الأمراض ومداواتها، وكانت له عناية بالكتب الطبية، والنظر فيها، وتحقيق ما ذكره المتقدمون من صفة الأمراض ومداواتها، له حواش على كتاب القانون لابن سينا، وشرح كتاب الفصول لأبقراط، أرجوزة، كانت له دكان باللبادين يجلس فيه يعالج من يأتي إليه أو يستوصف منه.

- محمد بن أبي بكر المنصور القلعي: نبغ في العلوم العقلية كالطب والرياضيات والحساب وعلم الفرائض (عويس، 1991، ص270).

- عبد الله بن يوسف الوهراني: كان متضلعا في الطب والحساب، تتلمذ على علماء القيروان (بن ميلاد، 1999، ص249).

2-4 الطب في العهد المرابطي: الحقيقة أنَّ المصادر لا تسعفنا بمعلومات كافية عن الطب في هذه المرحلة ولا سيما في المغرب الأوسط بحكم أنَّ القسم الأكبر منه كان تابعا للحماديين، ثم تمركز سلطتهم في مراكش، وإذا كان بعض الأمراء قد اهتموا بالعلوم الدينية على حساب بعض العلوم العقلية، فإنه يُستثنى منها الطب، حيث كان ابن زهر من أشهر الأطباء المقرَّب إليهم، بل إنَّ علي بن يوسف جمع كل مؤلفاته في سائر بلاد الأندلس والعدوة فنُسِخت (أحمد محمود، ص437)وهو ما يُعتبر كمكتبة طبية استفاد منها من أتى بعده من الأطباء.

3-4 الطب في العهد الموحدي: يعد عصر الموحدين العصر الذهبي للعلوم العقلية (عشي، 2012، ص 262) لأنه يُمثِّل زبدة العصور السابقة، وزاد اهتمام الخلفاء الموحدين به فشجعوا العلوم والفنون وبخاصة الطب، وقرَّبوا الأطباء ورفعوهم أحيانا إلى مرتبة الوزارة (أشباخ ، 2011، ص252)، ومن مظاهر عنايتهم بهذا العلم استثناء كتب الطب والحساب من الحرق إثر الحملة التي شنَّها المنصور ضد الفلسفة بعد الحادثة التي وقعت له مع ابن رشد، ويُؤكد اهتمامهم بالطب المختبر المعروف بخزانة الأشربة والمعاجين الذي تأسس في عهد يوسف بن عبد المؤمن (الطمار، 2007، ص168)، واتخاذهم الأطباء في قصورهم، وهي ظاهرة باتت معروفة لدى الدول التي تأسست في بلاد المغرب عموما (برونشفيك، 1988، ص389)، ومن أشهر الأطباء في هذا العهد، نذكر:

- أبو الحسن علي بن موسى بن محمد بن شلوط (ت610هـ/1213م): يُعرف بالشبارتي، كان محترفا في الطب ماهرا فيه، سكن تلمسان مدة (المراكشي، ص 413).

- أبو إسحاق إبراهيم الداني: استقرَّ ببجاية، ومنها استقدمه الموحدون للإشراف على بيمارستان مراكش (الطمار، 2007، ص 171).

- أبو عبد الله محمد بن سحنون الندرومي (580هـ-634هـ): أخذ صناعة الطب عن ابن رشد، خدم الخليفتين الناصر ثم المستنصر (ابن أبي أصيبعة، ص 537).

- أحمد بن عبد الرحمن بن محمد بن سعيد (ت592هـ): كانت له مشاركة في الطب، استقر ببجاية (السيوطي، 1979، ص 323).

- أبو عثمان سعيد بن حكم بن عمر القرشي (ت680هـ): استقرَّ ببجاية، كان له حظ صالح من علم الطب (المراكشي، ص28).

4-4 الطب في العهد الزياني: إذا عُدَّت فترة حكم الموحدين العصر الذهبي للطب، فإنَّ العهد الزياني (القرنين 8-9هـ/14-15م) يُمثِّل عصر النضج، وذلك بالنظر إلى سعة انتشار الطب وكثرة عدد الأطباء الممارسين له، والكتب المؤلفة والمترجمة فيه، وإقبال الناس على تعلُّمه، حيث اشتهرت عدة حواضر مثل تلمسان كمدارس للطب بفضل نخبة من حذَّاقه الذين

كانوا أساتذة في هذا العلم، درس على أيديهم طلبة من داخل المغرب الأوسط، ومن خارجه، وقد ساعد على ذلك جملة من العوامل:

أ- **انتشار المدارس**: عرفت تلمسان نظام المدارس مع مطلع القرن الثامن الهجري عندما أسَّس السلطان أبو حمو موسى الأول (707-718هـ/1308-1318م) مدرسة ابني الإمام سنة 710هـ/1310م، ثم المدرسة التاشفينية التي أمر بتشييدها أبو تاشفين عبد الرحمن ابن أبي حمو، ثم المدرسة اليعقوبية التي أسَّسها السلطان أبو حمو موسى الثاني (760-791هـ/1359-1390م) بين 763-765هـ تخليدا لوالده أبي يعقوب (مجهول، 2011، ص 225) فكانت هذه المدارس إلى جانب العلوم الدينية والأدبية تُدرِّس علم الطب، ومنها تخرَّج الأطباء.

ب- **دور السلاطين:** اهتم سلاطين بنو زيان بالعلوم فأسسوا لذلك المدارس، واستقبلوا العلماء والطلبة وأجروا لهم النفقات والأرزاق، قال ابن خلدون عن مدينة تلمسان:" ورحل إليها الناس من القاصية، ونفقت بها أسواق العلوم والصنائع فنشأ بها العلماء واشتهر فيها الأعلام، وضاهت أمصار الدول الإسلامية والقواعد الخلافية " (ابن خلدون ، 2009، ص2113).

ج- **هجرة العلماء إلى حواضر المملكة:** استقر عدد كبير من أطباء الأندلس بحواضر تلمسان وبجاية نتيجة تردي الأوضاع السياسية والأمنية في الأندلس فكانت هذه المدن وجهتهم المفضَّلة فاستقروا بها ناشرين وممارسين للطب.

د- **المؤلفات الطبية:** إنَّ الطب كأحد العلوم العقلية يقوم على التجربة العملية والملاحظة الدقيقة والمتابعة. فإنَّ الاطلاع على كتب الطب ولاسيما المعتمدة منها والمهمة أمر ضروري، ولا شك أنَّ تلك المؤلفات، سواء العربية منها أو المترجمة ككتب الرازي، وابن سينا، وجالينوس، منسوخة أو منقولا عنها كانت متداولة من طرف الأطباء والمهتمين، وموجودة في مكتبات المدارس، ومما ذُكر من كتب الطب" كتاب الرسالة الياقوتية الكافية المعروفة بالرسالة الهارونية " وهو بحث أو رسالة (traity) في الطب لعيسى بن حكم المسيح الدمشقي (ت.ب 225هـ) كتبها للخليفة العباسي هارون الرشيد في علاج أمراض العيون كانت موجودة في مكتبة مدرسة تلمسان (الطاهري، 2002، ص 42).

هـ- **انتشار الأمراض:** عرفت تلمسان كغيرها من مدن المغرب الأوسط الأمراض الشائعة في ذلك العصر والمتعلقة بالبيئة والمناخ والسكن أو المرتبطة بالنظام الغذائي والصحي والحياة الاجتماعية والهجرة، وغيرها من مسببات الأمراض، فبات من الضروري وجود أطباء لعلاجها، وفيما يلي نماذج عن تلك الأمراض:

- الحمى بأنواعها، والتي تسببها المساكن الرطبة (القمري، 1991، ص66 ـ 67) والمستنقعات والأوساخ والعفونات.

- صداع الرأس كالشقيقة، والذي تتسبب فيه عادة الحرارة والبرودة.

- القولنج (colic) مرض معوي يتعسر معه خروج ما يخرج بالطبع، وما يصيب الأمعاء الدقاق يسمى إيلاوس، ويطلق على القولنج في حد ذاته.

- الفالج (paralysis) وهو الشلل.

- الاستسقاء: مرض يصيب الكبد بالدرجة الأولى، ينتفخ معه البدن (الغساني، 1990، ص 415).

- ذات الجنب (pleurisy): أورام دموية موجعة تكون في الصدر الأضلاع ونواحيها.

- الجذام وهو علة تعفن وتقرح الأعضاء وتساقطها، ثم موت العليل. وقد ذكر المقري أنَّ هذا المرض قد انتشر في صفوف اليهود بتلمسان (المقري، 1968، ص256).

- البواسير: أورام تصيب المقعدة وباطن الأنف.

أطباء مدينة بجاية: ظلَّت بجاية كأحد حواضر المغرب الأوسط العلمية منذ تأسيسها من طرف الحماديين، واستمرَّ دورها العلمي على مر الفترات التاريخية، وقد اشتهر بها من الأطباء:

- ابن أندراس أبو القاسم محمد بن أحمد الأموي المرسي (ت674هـ/1275م): قدم إلى بجاية سنة 660هـ واستوطنها زمنا وأقرأ بها أرجوزة ابن سينا في الطب، درس عليه أثناء إقامته كل من أبو بكر بن الفلاس الفقيه الطبيب، والغبريني، وتولى بها تطبيب الولاة فلمَّا سمع به السلطان محمد المستنصر الحفصي (647-675هـ/1249-1276م) استدعاه إلى تونس فكان من جملة أطبائه (الغبريني، 2007، ص37).

- أبو العباس أحمد بن خالد المالقي: له مشاركة في الطب وفي الطبيعيات، استقرَّ ببجاية، وجلس للإقراء بمنزله، قرأ عليه الغبريني وغيره، توفي سنة 660هـ (الغبريني، 2007، ص 36 ـ 37).

- المشذالي أبو الفضل محمد بن محمد بن أبي القاسم (ت866هـ/1461م): بجائي، رحل إلى تلمسان التي قضى بها أربع سنوات، درس خلالها الطب عن محمد بن علي بن فشوش، وعن غيره حتى أصبح من المشار إليهم في هذا العلم، ووُصف بواحد عصره وفريد مصره، وكان الناس يلجئون إليه طلبا للدواء (سعد الله، 1998، ص 113).

في مدينة تلمسان: برزت تلمسان أكثر من غيرها في مجال الطب سواء بما أنجبته، أو بمن هاجر إليها واستقرَّ بها من الأندلسيين وغيرهم، نذكر منهم:

- أبو إسحاق إبراهيم بن أحمد الثغري التلمساني: ألَّف معجما صغيرا في الطب رتَّبه على حروف المعجم ضمَّنه الأعشاب التي كانت تُستعمل في الطب، وله أيضا رسالة في الطب، وفي الأدوية ومنافعها، ذكر فيها أبوابا: باب الإكتحال، صفة المعاجين، صفة الأشربة، باب سفوف ينفع من التخمة (سعد الله، 1998، ص 111).

- التلالسي أبو عبد الله محمد بن أبي جمعة الجرائحي (ت.ب767هـ/1365م): كان في سجن أبي يعقوب يوسف بن عبد الحق بالمنصورة، وهو الذي أخاط جراحاته بعد أن طعنه خصي في مخدعه، قرَّبه السلطان أبو حمو موسى الثاني كطبيب له (ابن مريم ، 2014، ص305).

- الحسن بن علي بن ثابت التلمساني (ت819هـ/1416م): عالم بالطب والتاريخ، له عدة مؤلفات (بن ميلاد، 1999، ص 253).

- ابن عبد السلام الخطيب التلمساني (القرن8هـ/14م): تعلَّم الطب بالقيروان والقاهرة ومهر فيه، سكن العُبَّاد (بن ميلاد، 1999، ص253).

- أبو المحاسن يوسف الندرومي: صاحب كتاب شمس الأنوار وجامع الأسرار (خليفة، ص1315).

- أبو عبد الله الدباغ المالقي (القرن 8هـ/14م): كانت له عناية بالطب (ابن مريم ، 2014، ص302).

- محمد بن علي بن فشوش: من أطباء تلمسان في القرن 9هـ/15م، كان يدرِّس بها علم الطب، ذكره عبد الباسط بن خليل في رحلته إلى تلمسان، قال:" ولقينا بها جماعة أخرى من الفضلاء والأدباء والأطباء، منهم محمد بن علي بن فشوش أحد أطباء تلمسان في المزاولة والدراسة، ونقلت عنهم أشياء وأجازني") (BRUNSCHVIG 1963،p44).

- العلوي أبو عبد الله محمد بن أحمد الشريف الحسني (ت771هـ): طبيب مشرّح وجراح، عيَّنه السلطان أبو حمو موسى الثاني مدرِّسا بالمدرسة اليعقوبية (ابن خلدون ع.، 2006، ص2352).

- موشي بن صمويل بن يهوذا الإسرائيلي: أصله من مدينة مالقة بالأندلس، أخذ هناك الطب عن أبيه وغيره، هاجر واستقرَّ بمدينة تلمسان، انتهت إليه الرئاسة في الطب، قال عنه عبد الباسط بن خليل:" ولازمتُ في الطب الرئيس الفاضل الماهر الأدرى الأقوى موشي بن صمويل بن يهوذا الإسرائيلي المعروف بابن الأشقر ... لم أسمع بذمي ولا رأيت كمثله في مهارته في هذا العلم ... وقصده الكثير من الفضلاء للأخذ عنه، لازمته مدة وأخذت عنه نبذة كبيرة نافعة في الطب وأجازني "(BRUNSCHVIG 1963، p44).

إضافة إلى هؤلاء الأطباء المتخصصين والممارسين للطب، وُجدت فئة أخرى لم يكونوا أطباء بمعنى الكلمة، وإنما كانت لهم اهتمامات بالطب إلى جانب تخصصهم الأصلي:

- السنوسي محمد بن يوسف (ت895هـ/1489م): إضافة إلى تخصصه في العقائد، أسهم في الطب واعتبره شطر العلم، وربطه بالدين، ألَّف رسالة صغيرة اعتمد فيها على شرح مجموعة من الأحاديث مثل حديث ((المعدة بيت الداء)) وغيره (سعد الله، 1998، ص113).

- أبو الفضل محمد بن إبراهيم التلمساني (ت845هـ/1441م): فقيه مالكي، كانت له عناية بالطب (السخاوي).

أطباء مدينة قسنطينة: اشتهر بقسنطينة كثير من الأطباء في العهد الحفصي، منهم:

- أحمد بن علي التميمي المعروف بابن الكماد: من عائلة اشتهرت بالطب (ابن قنفذ، 1968، ص178).

- أحمد بن حسين بن علي بن الخطيب القسنطيني: له منظومة في العلاج الغذائي من 280 بيت كتبها للأمير الحفصي أبي العباس أحمد (772-796هـ) يصف فيها فوائد الخضر والفواكه والأطعمة (بن ميلاد، 1999، ص255).

- حسن بن علي بن قنفذ القسنطيني: والد ابن قنفذ الخطيب، له كتاب في الطب: " المسنون في أحكام الطاعون " وسبب تأليفه اختلاف الطلبة في الفرار من الوباء (ابن قنفذ، 1968، ص192 ـ211).

- أحمد بن يوسف بن سعيد القسنطيني (ت878هـ): كان له حظ من الطب (التنبكتي، 2004، ص132).

- سعيد بن أحمد بن أبي يحي بن عبد الرحمن المقري: كان إماما في العلوم العقلية كلها: حسابا ومنطقا وفرائض وهندسة، وطبا وتشريحا (ابن مريم ، 2014، ص219).

- محمد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن الإمام (ت845هـ): له قدم راسخ في البيان والتصوف والأدبيات والشعر والطب (ابن مريم ، 2014، ص 389).

5- مؤسسات الطب والعلاج: وتتمثَّل في حوانيت الأطباء، والصيدليات، والمستشفيات المعروفة بالبيمارستانات. سنتتبع واقع كل واحدة منها فيما يلي:

1.5 حوانيت الأطباء: لا تذكر المصادر الوسيطة وجود عيادات للأطباء يتجه إليها المرضى، ويظهر أنَّ هؤلاء هم من كانوا يتوجهون إلى الطبيب في بيته أو في محله لطلب التشخيص أو المعالجة بالحجامة والفصد أو قلع ضرس، أو أي نوع من أنواع العلاج وربما كان الطبيب هو من يتنقل إلى محل المرضى وعرض العلاج عليهم، أو كان أهل المريض هم من يجلبون إليه الطبيب.

2.5 الصيدليات: مهمتها تحضير وصناعة الأدوية من العقاقير والأعشاب، وتُعرف عند اليونانيين بالأقراباذين، ويظهر أنَّ تحضير تلك الأدوية من أشربة ومعاجين وأدهان وسعوط وغيرها كان يقوم بها أناس مختصون، لهم معرفة بزمانها وخواصها وطريقة ومقادير تحضيرها (زاده، 1985، ص 324) ، ويمكن أن نميز نوعين من وصفات الأدوية، النوع الأول وهي الأدوية الجاهزة والتي كان يحضِّرها الصيادلة، يقتنيها المريض مباشرة، أمَّا النوع الثاني فهي الأعشاب والعقاقير والتي يصفها الطبيب للمريض، ويقوم هذا الأخير بشرائها من الصيدلي وتحضيرها بنفسه ثم استعمالها، وقد توفَّر الكثير منها في جبال وسهول المغرب الأوسط، فكانت المادة الأولية لصناعة الدواء، ولا شك أنَّ حرفة تحضير العقاقير الطبية كان معروفا لدى أهالي بجاية، وهو ما يُستنتج من قول الإدريسي دائما عن بجاية:" وبها من الصناعات كل غريبة ولطيفة "(الادريسي، 2010، ص255 ـ269) ، وقد انتشرت هذه الحرفة في البدو والحضر كما أشرنا في عنصر الطب الشعبي.

3.5 البيمارستانات: يبدو أنَّها لم تُعرف إلا في العهد الزياني، واقتصر وجودها على مدينتي تلمسان وبجاية، فقد توفي القاضي أبو عبد الله محمد بن أبي بكر النفزاوي بمليانة بسبب

مرض ألمَّ به (ابن بطوطة، 2011، ص32) دون أن يتمكن من دخول بيمارستان. ويُعتقد أن يكون بيمارستان المنصورة الذي أسَّسه السلطان يوسف بن يعقوب بن عبد الحق المريني سنة 702هـ/1302م خلال حصاره لتلمسان أول مؤسسة من هذا النوع بالمغرب الأوسط، وذكر الحسن الوزان عند وصفه لمدينة بجاية وجود مدارس يكثر فيها الطلبة وأساتذة العلوم، إضافة إلى الحمامات والفنادق والبيمارستانات (الوزان، 1983، ص50)، ويبدو أيضا أنَّ دورها لم يقتصر على إيواء المرضى فقط، بل أدت دورا تعليميا (سيدي موسى ، 2010، ص190 ـ 191) وهو ما ساهم في انتشار الطب.

خاتمة: إنَّ الطب كمظهر حضاري يُعد من العلوم التي حازت مكانة في المغرب الأوسط إلى جانب العلوم الدينية، ورغم تأخُّر ممارسته إلى القرن الخامس الهجري إلا أنَّ أطباء المغرب الأوسط ساهموا في تطوير صناعة الطب والصيدلة كعلم من العلوم العقلية، وفي آخر هذا البحث نطرح بعض الملاحظات والاستنتاجات عن ممارسة الطب في المغرب الأوسط، والتي يُمكن أن تكون بدورها مجالا للبحث .

- انتشر الطب في الحواضر الكبرى كالقلعة وبجاية وتلمسان وقسنطينة، وهو ما يتماشى مع الحياة في المدن التي تزداد معها حاجات الناس، باعتبارها من متطلبات العمران والحضارة.

- نالت الصحة اهتماما ومكانة في الثقافة الشعبية كمظهر حضاري اجتماعي، فاعتنى الناس بالملبس والمأكل والتطبيب.

- لعبت البيمارستانات دورا اجتماعيا، فبالإضافة إلى العلاج والرعاية الصحية التي يتلقاها المرضى، اعتُبِرت كمراكز اجتماعية لذوي العاهات ومن لا أهل لهم.

- ساهم الطب في القضاء على الأمراض التي كان من الممكن أن تودي بحية آلاف الناس ولا سيما في حالات الوباء، ولذلك فإنَّ توجيهات الأطباء وتدخُّلهم كانت له نتائج صحية إيجابية في الحفاظ على أرواح الناس.

- لم يقتصر دور الأطباء على علاج المرض وصف الأدوية، بل شاركوا في إدارة بعض مصالح الحياة الاجتماعية من خلال إشرافهم على نظافة أحياء المدن والسلع المعروضة في الأسواق وبخاصة التي لها علاقة بصحة المواطن كالمواد الغذائية والطبية، فالمشرف عليها وهو المحتسب لا بد أن يكون من أهل الاختصاص كأن يكون طبيبا مثلا، فانقمع الغش والتدليس وكل ما يضر بصحة الفرد.

- ساهم الفقهاء في ممارسة الطب، محاولين التوفيق بين الدين والطب من خلال شرح بعض الأحاديث المتعلقة بالغذاء والصحة والتطبيب.

قائمة المراجع:

- ابن أبي أصيبعة .*عيون الأنباء في طبقات الأطباء* .د ط .vols بيروت :مكتبة الحياة , s.d.
- ابن بطوطة .*رحلة ابن بطوطة* .vols 5 .بيروت :دار الكتب العلمية.2011 ,
- ابن خلدون .*تاريخ ابن خلدون* .بيروت :المكتبة العصرية.2009 ,
- ابن خلدون ,عبد الرحمان .*المقدمة* .ط .vols 9بيروت :دار الكتب العلمية.2006 ,
- ابن سهل .*فردوس الحكمة في الطب* .برلين :مطبعة أفتاب.1928 ,
- ابن صاعد ,الأندلسي .*طبقات الأمم* .القاهرة :دار المعارف.s.d ,
- ابن قنفذ ,القسنطيني .*الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية* .تونس :دار التونسية للنشر.1968 ,
- ابن مرزوق .*المناقب المرزوقية* .vols 1 .الدار البيضاء :وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية.2008 ,
- ابن مريم .*البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان* .vols 1 .بيروت :دار الكتب العلمية.2014 ,
- أبو علي الحسين ابن عبد الله بن الحسن بن علي ابن سينا. *القانون في الطب*. المجلد الجزء 1. بيروت: دار الكتب العلمية، 1999.
- أحمد محمود ,حسن .*قيام دولة المرابطين* .القاهرة :دار الفكر العربي.s.d ,
- أشباخ ,يوسف .*تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين* .القاهرة :المركز القومي للترجمة.2011 ,
- الادريسي .*نزهة المشتاق في اختراق الأفاق* .vols 1 .القاهرة :مكتبة الثقافة الدينية , 2010.
- البكري ,أبو عبيد الله .*المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب* .بيروت :دار الكتب العلمية.2013 ,

- التنبكتي ,أحمد بابا .*نيل الابتهاج بتطريز الديباج* .القاهرة :مكتبة الثقافة الدينية , 2004.
- التهاوني .*كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم* .ط .vols 1بيروت :مكتبة لبنان.1996 ,
- الدرجيني .*طبقات المشايخ بالمغرب* .vols 2 .قسنطينة :مطبعة البعث.s.d ,
- الرازي ,أبو بكر .*الحاوي في الطب* .Vol .ط .1بيروت :دار الكتب العلمية.2000 ,
- السخاوي ,شمس الدين .*الضوء اللامع لأهل القرن التاسع* .بيروت :دار الجيل.s.d ,
- السيوطي ,جلال الدين .*بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة* .vols 2 .القاهرة : دار الفكر.1979 ,
- الشاطبي إبراهيم .*الموافقات* .الخبر :دار ابن عفان.1997 ,
- الصفدي ,صلاح الدين .*نكت الهميان في نكت العميان* .القاهرة :مطبعة الجمالية , 1911.
- الطاهري ,أحمد .*فهرس كتب الطب والفلاحة والنبات المحفوظة بالمكتبة العامة بالرباط* .vols 1 .الدار البيضاء :مطبعة النجاح.2002 ,
- الطمار ,محمد .*الروابط الثقافية بين الجزائر والخارج* .الجزائر :دار المطبوعات الجامعية.2007 ,
- العقباني .*تحفة الناظر وغنية الذاكر في حفظ الشعائر وتغيير المناكر* .دمشق :المعهد الفرنسي للدراسات الشرقية .1967 ,
- الغبريني ,أبو العباس .*عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية*. .vols 1الجزائر :دار البصائر.2007 ,
- الغساني ,الوزير .*حديقة الأزهار في ماهية العشب والعقار* .بيروت :دار الغرب الإسلامي.1990 ,
- القمري ,ابن نوح .*التنوير في الاصطلاحات الطبية* .الرياض :مكتبة التربية العربي لدول الخليج.1991 ,

- المراكشي ,ابن عبد الملك .*الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة* .بيروت :دار الثقافة.s.d ,
- المقري ,أحمد .*نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب* .بيروت :دار صادر.1968 ,
- الهروي ,محمد بن يوسف .*بحر الجواهر في تحقيق المصطلحات الطبية* .كليكوتا : نشر لجنة التعليم العام.1830 ,
- الوزان ,الحسن .*وصف إفريقيا* .3 vols .بيروت :دار الغرب الإسلامي.1983 ,
- الونشريسي .*المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوي أهل إفريقية والأندلس والمغرب* .الرباط :وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية.1981 ,
- برنار .*قانون الصحة أو المنحة في سياسة الصحة* .المطبعة البهية .1829 ,
- برونشفيك ,روبار .*تاريخ إفريقية في العهد الحفصي من القرن 13 م حتى القرن 15 م* . .vols 1بيروت :دار الغرب الإسلامي.1988 ,
- بن ميلاد ,أحمد .*الطب العربي التونسي في عشرة قرون* .2 vols .بيروت :دار الغرب الإسلامي.1999 ,
- بورويبة ,رشيد .*الدولة الحمادية تاريخها وحضارتها* .الجزائر :ديوان المطبوعات الجامعية.1977 ,
- جيجلي، شخوم ,سالمة، سعدي .*حرز في العلاج بالطب الروحاني* .سيدي بلعباس، الجزائر.
- خليفة ,حاجي .*كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون* .بيروت :دار إحياء التراث العربي.s.d ,
- زاده ,طاش كبرى .*مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم* .1 vols . بيروت :دار الكتب العلمية.1985 ,
- سعد الله ,أبو القاسم .*تاريخ الجزائر الثقافي* .بيروت :دار الغرب الإسلامي.1998 ,
- سعدي شخوم. مجلة الناصرية. *الصناعة الصيدلية بالدولة الزيانية من خلال مؤلفات إبراهيم بن أحمد الثغري التلمساني 8هـ/ 14م.* معسكر، الجزائر: مخبر البحوث الاجتماعية والتاريخية ، 2013.

- سيدي موسى ,محمد الشريف» .الحياة الاجتماعية والاقتصادية في بجاية عصر الموحدين إلى الاحتلال الإسباني «.الجزائر ,كلية العلوم الاجتماعية والانسانية : جامعة الجزائر.2010 ,
- شخوم ,سعدي» .أرجوز في الغذاء والطبخ «.*المجلة التاريخية الجزائرية* .الجزائر , 2019.
- صديقي ,محمد» .الأمراض والخدمات الصحية في بلاد المغرب الإسلامي ما بين القرنين 7.5هـ 11 /. 13م «.الوادي، الجزائر :جامعة حمة لخضر.2021 ,
- عشي ,علي» .المغرب الأوسط في عهد الموحدين دراسة تحليلية للأوضاع الثقافية والفكرية 633-534هـ1235-1139/م «.كلية العلوم الاجتماعية والانسانية :جامعة باتنة.2012 ,
- عويس ,عبد الحليم .*دولة بني حماد صفحة رائعة من التاريخ الجزائري* .vols 2 . القاهرة :دار الصحوة.1991 ,
- مجهول .*زهر البستان في دولة بني زيان* .الجزائر :عالم المعرفة.2011 ,
- محمود الحاج ,قاسم» .أساليب التشخيص في الطب العربي الإسلامي «.*مجلة آفاق للثقافة والتراث* .دبي.2000 ,
- مزدور ,سمية» .المجاعت والأوبئة في المغرب الأوسط 588. 927هـ 1192 /. 1520م «. *جامعة منتوري* .قسنطينة، الجزائر ,قسم التاريخ والآثار.2009 ,
- نجيب محمود ,زكي .*أعلام العرب جابر بن حيان* .القاهرة :دار مصر للطباعة .s.d ,
- BRUNSCHVIG, RObert. *deux récit de voyage inédits en Afrique du nord aux 15° siècle, s.e., larose éditeurs.* paris: larose , 1963.